

## من ذكريات الحملة الفرنسية

### رستم مملوك الامبراطور

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يرقد نابوليون في منواه الخالد في مؤخرة صرح الانفاليد بياريس ، في نابوت من المرمر القاتم ، تظله قبة نخمة رائعة ، وقد ركزت حوله عدة من الأعلام التي ظفر بها الامبراطور في الوقائع الشهيرة التي خاضها وكان النصر حليفه فيها مثل مارنجو ، وفاجرام ، وايلو ، وأوسترتز ، وبيننا ، والاهرام ، وغيرها ؛ وقد استوقفنا يوم أتيجت لنا زيارة قبر الامبراطور منظر ذينك المعلمين المرزقين اللذين كتب أمامهما موقعة الاهرام ، فلم نستطع أن نميز لهما لوناً أو علامة خاصة أو أن نقرأ فيهما شيئاً

كانت الحملة المصرية من أعظم الحوادث التي تركت في ذهن نابوليون أثراً خالداً ؛ ومع أنها اختتمت بالفشل من الوجهتين العسكرية والسياسية فإنها تركت من الوجهة المعنوية أعمق الآثار ؛ ولم يكن نابوليون حين مقدمه إلى مصر فاتحاً يبحث وراء ظالمه فقط ، ولكنه كان يتصور انه يستطيع أن يبيد حلم الاسكندر ، فيبدل الأمم والحضارات ؛ ومن ثم فقد حشد في جيشه المطابع والأدوات العلمية إلى جانب المدافع ، والعلماء البرزين في كل فن إلى جانب الضباط والقادة ؛ ولم يكن ظفر نابوليون بفتح مصر والبقاء فيها مدى حين ، ليضارع تلك الجهود البديعة التي اضطلع بها علماء الحملة الفرنسية لدراسة مصر وحضارتها ، وتلك النتائج العلمية الباهرة التي وقفوا اليها ، ودونوها فيما بعد في كتاب « وصف مصر » أعظم وأقوم موسوعة ظهرت عن مصر ، في العصر الحديث

ولما عاد نابوليون من مصر إلى فرنسا حينما تعقدت الحوادث وتجهمت ، ( اكتوبر سنة ١٧٩٩ ) ، لم يكن لديه أمل في استبقاء مصر طويلاً ، ولكنه أراد أن يغادرها جنده في أفضل الظروف والشروط ؛ وهذا ما وقع بعد قليل ، فقد انتهت الحوادث بجلاء الفرنسيين عن مصر في أواخر سنة ١٨٠١ ؛ ولكن نابوليون لم يقطع صلته بمصر ، ولم ينقطع اهتمامه بشؤونها ؛ فقد عني بعد ذلك

بتأليف لجنة من العلماء الذين رافقوا الحملة إلى مصر مثل برتوليه ومونج وفورييه ، لتضع موسوعة شاملة عن مصر ، وظهر أول مجلد من هذه الموسوعة ، أو كتاب وصف مصر الذي أشرف عليه في سنة ١٨٠٩ ، واستمر صدورها بعد ذلك أجزاء متعاقبة الى سنة ١٨٢٦ ، وكانت من أعظم ثمار الحملة العلمية

ولبت نابوليون وثيق الصلة بمصر وذكرياتها عن طريق آخر ؛ ذلك هو حرسه الخاص الذي ألفه من بعض المالك والأباط والترك والسود الذين اصطحبهم معه من مصر ؛ وكانت هذه الفرقة المختارة التي يرتدى أفرادها الثياب الشرقية الزاهية ويركبون الخيول المطهمة تصحب الفئصل الأول ، ثم الامبراطور ، في غدواته وروحائه ، الى التويلري ومليزون ؛ وكان منظرها الفخم المروع معاً ، يثير طلعة الباريسيين ودهشتهم ، فيحتشدوا لرؤية أولئك الفرسان الشرقيين ، أولى الشوارب المفتولة ، والعائم اللونة ، والثياب الفضفاضة ، كلما مر ركب نابوليون

وكان عميد هذه الكوكبة المختارة جندي مملوك يدعى رستم . ولرستم مع نابوليون قصة طريفة تزويها في هذا الفصل . كان رستم أحد أولئك المالك الذين يصعب تعقب أصولهم أو حياتهم الأولى ، أتى به القدر الى القاهرة بعد أن بيع مزاراً واتي خطوباً ، وقدم الى بونابارت في القاهرة حينما طلب أن يؤثى له بعض الأعداء الوطنيين . وكان رستم يومئذ فتى في عفتوانه وسيم الحيا ، فراق نابوليون منظره ، وسأله حسبما يقرر لنا رستم بعد ذلك في مذكراته ، هل يجيد الركوب والطمأن ، فأجاب رستم بالاجاب . وسأله نابوليون عن اسمه ، فأجاب ان اسمه الأخير يحيي ، ولكن اسمه الحقيقي الذي سمي به في بلاد الكرج مسقط رأسه هو رستم ؛ فأمره نابوليون أن يتسمى بهذا الاسم ، ثم وهبه سيفاً دمشقياً رصمت قبضته ببعض الجواهر ، ومسدسين زينا بالذهب ، وألحقه بخدمته

ولم تحض أيام قلائل حتى اضطر نابوليون الى مغادرة مصر مسرعاً الى فرنسا ، فلم ينس أن يصطحب معه مملوكه الجديد رستم على ظهر السفينة « مويرون » التي أقلته الى فرنسا مع بعض علماء الحملة من أصدقائه ؛ وكان رستم يختص بخدمة سيده الجديد ، ويقضي المساء على مقربة من الحلقة التي تتألف كل ليلة في مؤخرة « مويرون » من نابوليون والعالمين برتوليه ومونج

الملاصق ، وكان هو الذى يحمل العشاء إلى الامبراطور والامبراطورة حينما يكونان في الفراش ؛ وكان ملحوظا بالرعاية من جميع أعضاء الأسرة الملكية والحاشية ، حتى أن الملكة هورتنس ابنة الامبراطورة جوزفين ، وزوجة الجنرال مورات ، عنيت بتصويره ، وكانت تعنى له المقطوعات الساحرة حتى لا ينام أثناء التصوير

وأتت نفس رسم إلى الزواج ، وهام بحب آتسة تدعى دوفيل وهي ابنة أحد منادى الامبراطور ، وكانت رائدة الحسن في التاسعة عشرة من عمرها ؛ ولما طلب رسم يدها قامت في سبيله بعض صواب شكلية لأنه لم يكن كالفنائه كاثوليكي المذهب ، ورفض الأسقف الموافقة على هذا الزواج ، فتدخل الامبراطور وقضى على هذه الصواب ، وتم زواج رسم بالآتسة دوفيل في سنة ١٨٠٦ ؛ ورزق رسم منها غلاما سمي « أشيل » ، قطرب الامبراطور لمولده وأغدق العطاء لمملوكه

وظل رسم متمتعا برعاية الامبراطور ، يرحح في ظلال النعماء والنفوذ ، حتى وقعت الكارثة ، وهزم نابوليون في حرب التحرير واضطره الحلفاء الظافرون إلى التنازل عن العرش والسفر إلى جزيرة « إلبا » ؛ وهنا سئل رسم كاستل المخلصون من حاشية الامبراطور ، عما إذا كان يرغب في مرافقة الامبراطور إلى المنفى ، يتردد رسم في اللحاق به ، وهروا إلى زوجه في باريس منادرا ذلك القصر الذى أنفق فيه أعواما طولا متمتعا برعاية أعظم رجل في فرنسا ، وفي أوروبا بأسرها ؛ ودل بذلك على أثره ، ووضع نفسه ؛ بيد أنه ندم على فعلته بعد ، حينما رأى بداية العهد الجديد تميل إلى اضطهاد كل من كانت له صلة وثيقة بالعاهل المنفى ؛ وكانت فرقة المالك التي ينتمى إليها رسم قد انحلت مع مرور الزمن وغادرها معظم رجالها ومات عدد منهم ، وبقي رسم بعد ذلك أبرز أعضائها القدماء ، ورأى رسم نفسه ينزل من علياء نفوذه بسرعة ، ويجرد من سيفه وعمامته ، وينظر إليه بعين الشك من الحكومة الجديدة . ألم يكن رسم أخلص حرس الامبراطور وأقربهم إليه وأشد هم وطأة على أعدائه ؟ وأحيط رسم برقابة صارمة ، ونقل عيون الحكومة الجديدة عنه أغرب الأخبار ، وقيل أنه يدبر مؤامرة لقلب الحكومة الملكية ؛ والواقع أن رسم كان أبعد الناس عن هذه

يتحدثون في الشؤون العامة أو يلعبون الورق ؛ وكان نابوليون كثيرا ما يقول لمملوكه انه سيجد في باريس كثيرا من المال والنساء الحسن ، فيطرب رسم ، وتضطرب مخيلته بالأحلام اللذيذة ، ويتذكر ماضيه التمس الحافل بصنوف البؤس والمخاطرة ، وما أسبغ الحظ عليه من رعاية ذلك السيد العظيم الذى سيقوده إلى مستقبل حافل بصنوف السعادة والنعيم

ووصلت « مويرون » إلى الميلاء الفرنسية بعد رحلة خطيرة دامت نحو خمسين يوما ؛ ولما وصل رسم في ركب سيده إلى باريس ، رأى منظرا رائعا لم يتصوره من قبل ، وسحرته عظمة العاصمة الفرنسية ، التي لم تكن القاهرة أعظم مدينة شاهدها في الشرق إلى جانبها شيئا مذكورا ؛ ولم تحض أشهر قلائل حتى ظفر نابوليون بالنساء الحكومة الادارية المؤقتة (الديركتور) ، وصدر دستور القنصلية (ديسمبر سنة ١٧٩٩) ، وانتخب نابوليون قنصلا أولا ، وانتخب معه صديقه كامباسير ولبرون كقنصلين ثان وثالث ؛ وهنا جاء دور رسم في الظهور إلى جانب سيده في المواكب العظيمة ، وكان نابوليون يتوق دائما إلى أن يحيط نفسه بتلك المظاهر الشرقية الساحرة ، فكان رسم يتقدم عربا القنصل الأول دائما ، وهو على ظهر فرس بديع ، وقد ارتدى صدرية من القטיפنة الزاهية فوق ثوب واسع ، ووضع على رأسه عمامة بيضاء أنيقة ؛ وكان منظره الشائق الساحر مما أجهل ما في ركب القنصل حين يقدو وحين يروح

وجاء دور الامبراطورية وتألقت نجم رسم سراعا ، وشهد الحفلة الدينية الكبرى التي توج فيها الامبراطور بالرغم من معارضة رجال الخاصة ، وأعد له بهذه المناسبة ثوبان فاخران وضع رشمهما « إيسابي » مصور الامبراطور ، وظهر رسم في كنييسة « الانفاليد » وعليه صدرية من الكشمير الفاخر المنطرز بالذهب وعمامة رائدة الحسن ، وذاعت شهرته حتى أصبح من طرائف باريس التي يعنى برؤيتها كل زائر للعاصمة ، وطبعت صورته ووزعت بالألوف في جميع أنحاء فرنسا ؛ وأغدق الامبراطور على مملوكه العطاء والصلة ورتب له عدة رواتب حسنة حتى غدا من أهل اليسار والنعيم ؛ وكان الامبراطور يثق به ثقة لاحد لها ، فلم يكن من أقطاب حرسه الخارجى فقط ، ولكنه كان حارسه الأمين في حياته الداخلية أيضا ؛ فكان ينام عند عتبة غرفة الامبراطور في البهو

## وحي الثلاثين للأستاذ عبد المنعم خلاف

على مقطع من مقاطع الزمن الذي يبنيني ، أقف مستدبراً  
مواكب الحياة الحاضرة ، لأستعرض هذه العقود الثلاثة التي  
كونت جسمي ذرة ذرة ، وملأت رثتي شهقة وأفرغتها زفرة ،  
وسلكت عقلي فكرة فكرة !

وأريد في وقتي هذه أن يكون في روحي غيبوبة وامتداد ،  
وفي ذاكرتي صحو واجتماع ، وفي قلبي حنين واحتياج ، وفي عقلي  
سكون وإدراك ، وفي جسمي صحة ووُعود ، وفي قلبي حساسية  
وبيان . . . فإن الصور التي أرسدها مخبوءة في رُكّام من آياتي  
البالية التي لبستها أمام الشمس والقمر قطعاً بالخالعين « الأبيض  
والأسود » ثم نضوتها ومعها بسمه أو دمه أو فكرة أو ذكرى ،  
أو قطعة من قلبي أو هزة من جسمي في عرارة الطفولة أو صحوة  
الصبا أو فوّة الشباب الذي يوشك أن يمضي به ما أشاب الصغير  
وأفنى الكبير من كَرّ النداء وصرّ العشي . . . !

\*\*\*

أمس ! بإوادي الظلال الساكنة من حياتنا العاملة الناصبة .  
أنا الآن في حركة إديار وارنداد إليك ، في ساعة ليس لي فيها  
حاضر راهن يشغلني ، ولا أمل غائب يغازلني ، واقف فيك على  
أطلالي ! أبحث فيها عن سور عيني ولما فيك ظلال ، وأنتقام أذني ،  
ومنها بك أصداء . . . بل إني لأبحث عن سرى وميراثي من عهد  
آدم حادراً في الأصلاب منتقلاً في الأحتجاب في عالم غيبي  
ومشهدى !

فن لي بما يروى لي ما بين مُبتدأى ويومى هذا . . . ؟ إنها  
شقة بعيدة أحسب أنها تُعني تهاويل الخيال المسعد !

\*\*\*

وقد قالت « الفسليجة » : إني صورة تتجدد فيها خلايا جسمي  
كل سبع سنين . . . تلتُ أن الجسم الأول ولّا الثاني ولا الثالث  
ولا الرابع . . . وليس في بقية منها ، فإذا بحثت عن أجزائي التي  
مدت وأبعاضني التي عُيبت ، فلن أجدها إلا في ذلك الجسم العظيم

الريب ، ولم يكن يود إلا أن يعيش في سلام بعيداً عن ذلك الماضي  
الذي يريه ويرعبه

ولما عاد الامبراطور من منفاه في إلبا توجس رسم ثرا ،  
وهزول إلى سيده القديم يلتمس الصفح والاعادة ؛ فأبى الامبراطور  
رؤيته ، وردّه باحتقار . وكان رسم يقيم عندئذ متزويماً في بعض  
ضواحي باريس . فلم يكن أحب إلى نفسه من أن يستأنف حياة  
الانزواء والهدوء ؛ ولم يمض غير قليل حتى وقعت الكارثة الحاسمة  
وهزم نابليون في واترلو وحمل إلى منفاه في سنت هيلانه ؛ ولم  
يهتز رسم لهذه الحوادث ، وقع من الحياة بالهدوء ، والسكينة ؛  
وعاد إلى سكنى باريس بعد أن نسيته الحكومة الجديدة ، ولم  
يحاول إقلاق راحته ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع بعد برخائه القديم بعد  
أن أنقصت رواتبه ، وكثر عياله ، فزاه في سنة ١٨٢٤ يسافر إلى  
لندن إجابة لدعوة أحد أصحاب المسارح ، وهناك يعرض نفسه  
في ثيابه الشرقية القديمة ويكسب بذلك بعض المال

وقضى رسم في لندن نحو عام ، ثم عاد إلى باريس ، وانتقل  
بأسرته إلى بلدة دوردان على مقربة من باريس ليعيش فيها ؛ وهناك  
لم تفارقه صفته القديمة « مملوك الامبراطور » ؛ وكانت هذه  
الصفة تثير من حوله الفضول وتسيخ عليه مهابة خاصة ؛ بيد أنه لم  
يكن يتمتع يومئذ بشي من مظاهره الشرقية القديمة ؛ وكان يحب  
الصيد ، ويفيشي مجتمعات المدينة ، ويتصل بكثير من أهلها بأواصر  
الصداقة الثينة ؛ وكان كثيراً ما يقص ذكرياته عن الامبراطور  
ويفاخر بما لديه من آثار الامبراطور مما أفاضه عليه أيام عزه ؛  
وكان بعض الساخطين عليه يرمونه بالخيانة ، ويقولون عنه إنه خائن  
لبلاده خائن لولي نعمته ، بيد أن رسم لم يكن ليعبأ بهذه الملاحن ،  
وكان يحتفظ دائماً بسكينة وهدوء نفسه

وتوفي رسم في سنة ١٨٤٥ ، في الرابعة والستين من عمره  
ودفن بقبرة دوردان وكتب على قبره ما يأتي « هنا يثوى رسم  
رضا ، مملوك الامبراطور نابليون سابقاً ؛ ومولده بتفليس من  
أعمال الكرج » ؛ وكانت وفاته خاتمة لآخر التكريات الحية في  
تاريخ الحملة الفرنسية على مصر (١)

محمد عبد الله عثمان

(١) استنساخ معظم التفاصيل الخاصة بحياة رسم من الموزج الفرنسي

لنوتر Lenotre